رواد التجديد في الشعر العربي

عناصر المحاضرة :

-شكل جديد للقصيدة

-السياب

-نازك الملائكة

-صلاح عبد الصبور

-محمد الماغوط

شكل القصيدة الجديد:

أشرنا في المحاضرات السابقة إلى أن الأدب العربي عرف كثيرا من حركات التجديد متأثرا دائما بمتغيرات البيئة و التاريخ ، لكن مع ذلك ظل الشعر يحتفظ "بالهيكل" المقدس ، إلى غاية منتصف الأربعينيات من القرن الماضي حيث تجاوز السياب ونازك الملائكة البنية التناظرية للقصيدة وابتكرا نظاما جديدا هو " نظام التفعيلة كوحدة إيقاعية متكررة بكل تحولاتها".

وانطلاقا من ذلك وجد القارئ العربي نفسه إزاء النص الذي يعتمد على التوالي بالدرجة الأولى بعدما كان يأخذ بعين الاعتبار التقابل بين الأشطر أولا، وصار بالإمكان الحديث عن " اشتغال فضائي جديد" (2).لأن التغيير في البناء الزمني الإيقاعي يصحبه بالضرورة تغير في فضاء النص الطباعي.

ويعتبر هذا الشكل من أشكال الفضاء الطباعي للشعر العربي الشكل الأكثر جرأة في مجاوزة السابق والتحرر من سلطته التي هيمنت طويلا . ونقول الشكل الأكثر جرأة بالنظر إلى مختلف الهيئات الطباعية التي اتخذتها القصيدة العربية سابقا، والتي ظلت تحافظ في عمقها دائما على بنية تناظرية

متساوية الأشطر من حيث الكم الإيقاعي ومن حيث " الكم" المكاني ، وليس بالنظر إلى الأشكال التي ستظهر لاحقا– كما سنرى– والتي يتم فيها هدم المرجع تماما. و بغض النظر عن الرائد الفعلي لقصيدة التفعيلة هل هو نازك الملائكة بقصيدتها "الكوليرا" أو بدر شاكر السياب بقصيدته "هل كان حبا" أو علي أحمد باكثير أو لويس عوض أو غيرهم ممن كتبوا هذا اللون الشعري منذ الثلاثينيات من القرن الماضي كما تشير إلى ذلك نازك الملائكة نفسها، فإن هذا النموذج الشعري لم يكن موضة عابرة فقط لدى مجموعة من الشعراء بل اتخذ شيئا فشيئا طابع تجربة جماعية انخرط فيها شعراء المرحلة و من تلاهم من المبدعين . و سنقف في الآتي من المحاضرة عند أهم رواد التجديد الشعري .

بدر شاكر السياب :

وُلد بدر شاكر السيّاب في قرية جيكور، وهي قرية صغيرة تابعة لقضاء أبي الخصيب في محافظة البصرة، واسمها معناه (الجدول الأعمى)، وكانت جيكور وارفة الظلال ، خلابة الطبيعة مما جعلها حاضرة دوما في كتابات السياب . فَقَد السياب والدته عندما كان عمره ست سنوات، مما كان له أعمق الأثر في حياته. أتم دراسته ببغداد ، بدار المعلمين العالية، متخصصا في اللغة العربيّة ،ثم اللغة الإنكليزية .عُرف السياب بميوله السياسية اليسارية كما عُرف بنضاله الوطني في سبيل تحرير العراق من الاحتلال الإنكليزي، وفي سبيل القضية الفلسطينية. توفي سنة 1964 .

يقف السيّاب من الشعر الحديث موقف الثائر الذي يعمل على قلب الأوضاع الشعريّة و الثورة على التقليد وثقافة تقديس الأنظمة القديمة ، وابتكار طريقة جديدة، وتعبّر عن حقائق جديدة. وساعدَ السيّاب في عمله " جرأة في طبيعته، وتحرُّك اجتماعيّ وسياسيّ ثوري هز العالم الشرقيّ هزاً عنيفاً، ثم انفتاح على أدب الغرب وأساليب الغرب في التفكير والتعبير "(3).

يتميز شعر السيّاب بالطابع الفكري العميق، وغزارة المعاني، و تداخل التيارات الفكرية (الواقعية ، الرمزية ، الرومانسية) كما تتميز نصوصه بحضور الثقافة الأسطورية التي تستغل في قراءة الوجود الحاضر، و الإشارات التاريخية التي تستقطب نوعا خاصا من القراء . و يمكن أن نمثل هنا بقصيدته الأولى في تجربة الشعر الحر الجديدة :

هل كان حبا؟

هل تسمين الذي ألقى هياما؟

أم جنونا بالأماني أم غراما؟

ما يكون الحب ؟نوحا و ابتساما ؟

أم خفوق الأضلع الحرى إذا حان التلاقي

بين عينينا فرارا باشتياقي

عن سماء ليست تسقيني إذا ما؟

جئتها مستسقيا إلا أواما

.....

العين الحور لو أصبحن ظلا في شرابي

جفت الأقداح في أيدي أصحابي

دون أن يحظين حتى بالحباب

هيئي يا كأس من حافاتك السكرى مكانا

تتلاقى فيه يوما شفتانا

في خفوق و التهاب

وابتعاد شاع في آفاقه ظل اقتراب

.....

كم تمنى قلبي المكلوم لو لم تستجيبي

من بعيد للهوى أو من قريب

آه.. لو تعرفي قبل التلاقي من حبيب

أي ثغر مس هاتيك الشفاها

ساكبا شكواه آها.,..ثم.آها

غير أنني جاهل معنى سؤالي عن هواها

أهو شيء من هواها يا هواها؟

.....

أحسد الضوء الطروبا

موشكا مما يلاقني أن يذوبا

في رباط أوسع الشعر التثاما

السماء البكر من ألوانه آنا و آنا

لا ينيل الطرف إلا ارجوانا

ليت قلبي لمحة من ذلك الضوء السجين

أهو حب كل هذا ؟ أخبريني (4)

نازك الملائكة :

ولدت نازك الملائكة في بغداد عام 1923م، ونشأت في بيت علمٍ وأدب، من أم شاعرة هي سلمى عبد الرزاق و أب أديب و باحث هو صادق الملائكة، فتهيأت لها أسباب الإبداع منذ الصغر. تابعت درستها و التحقت بدار المعلمين العالية وتخرجت فيها عام 1944م بدرجة امتياز،سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتبحر في اللغة الانكليزية وآدابها عام 1950م. و أجادت إلى جانب ذلك اللغات الفرنسية والألمانية واللاتينية . كانت تحمل شهادة الليسانس باللغة العربية من كلية التربية ببغداد، والماجستير في الأدب المقارن من جامعة وسكونس بأميركا. مثّلت العراق في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في بغداد عام 1965م. وعينت أستاذة في جامعة بغداد وجامعة البصرة ثم جامعة الكويت. عاشت في القاهرة منذ 1990 م في عزلة اختيارية وتوفيت بها سنة 2007 .(5)

تتميز تجربة نازك الملائكة بالانفعال المباشر مع القضايا التي عاصرتها ، كما يطبع شعرها الحس المأساوي ، و هذا يرجع للأحداث التي طبعت عصرها و إلى نفسيتها المرهفة الرقيقة ، أضف إلى هذا يلاحظ القارئ المتتبع لأعمال نازك الملائكة ذلك الهاجس الفلسفي المتمظهر عبر موضوعات الموت و الحياة ، و الوجود ، و الليل،و المرض و المعاناة . و على العموم غلبت على شعر نازك الملائكة النزعة السوداوية التشاؤمية . في عام 1947 بدأت نازك الملائكة تجربة كتابة القصيدة الحديثة وكانت تَعي ما تفعل وما تُقدم عليه من تجربة جديدة في الشعر العربي، وأثبتت حضورها القومي الإنساني حين كتبت قصيدة "الكوليرا" تعاطفا مع المصريين ومصر التي انتشر فيها ذلك الوباء بنفس العام ، و هي القصيدة التي يؤرخ بها بعض النقاد للريادة الشعرية في مجال شعر التفعيلة.

..سكن الليل
أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْق الظلمةِ، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو، تضطربُ

حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ

يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ

في كل فؤادٍ غليانُ

في الكوخِ الساكنِ أحزانُ

في كل مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ

في كلِّ مكانٍ يبكي صوتْ

في كلِّ مكانٍ يبكي صوتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

طَلَع الفجرُ

أصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ

في صمتِ الفجْر، أصرخْ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أمواتٍ، عشرونا

لا تُحْصِ أصِغ للباكينا

اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين

مَوْتَى، مَوْتَى، ضاعَ العددُ

مَوْتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ

في كلِّ مكانٍ جَسَدٌ يندُبُه محزونْ

لا لحظَةَ إخلادٍ لا صَمْتْ

هذا ما فعلتْ كفُّ الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

في كَهْفِ الرُّعْب مع الأشلاءْ

في صمْت الأبدِ القاسي حيثُ الموتُ دواءْ

استيقظَ داءُ حقْدًا يتدفّقُ موْتورا

هبطَ الوادي المرِحَ الوُضّاءْ

يصرخُ مضطربًا مجنونا

لا يسمَعُ صوتَ الباكينا

في كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداء

في كوخ الفلاّحة في البيتْ

لا شيءَ سوى صرَخات الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ

لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ

حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِير (6)

-صلاح عبد الصبور :

شاعر مصري، ولد سنة 1931 و توفي سنة 1981 ، و يُعدّ من أهمّ روّاد الشعر الحر، كما يُعدّ من أبرز رموز الحداثة العربيّة، ومن أهمّ الشّعراء الذين ساهموا في التأليف المسرحيّ، و قد تنوّعت المصادر التي أثرت في تجربة صلاح عبد الصبور الشعرية ، بداية من شعر الصعاليك وشعر الحكمة العربيّ، مرورًا إلى التأثّر ببعض أفكار الصوفيّة؛ أمثال الحلاج وبشر الحافي، كما استفاد من الشعر الرمزيّ الفرنسيّ ومن الشعر الألماني، إضافة إلى الشعر الفلسفيّ . و يمكن إجمال خصائص شعر عبد الصبور في الآتي:

-تضمين شعرِه مشاعرَ اليأس والحزن والألم

-الابتعاد عن التَّكرار والصّنعة والنمط التقليديّ عمومًا

-الاستلهام من التراث الأدبي العربي- المبالغة في الاستفادة من الموروث الصوفي في قصائده

- استخدام العديد من الشخصيّات التاريخية في تصوير رموز القصيدة والتعبير عن بعض الأفكار

- التأثّر بالشعر الإنجليزيّ الفلسفي خاصّةً عند ت.س.إليوت وجون دون

– التأثّر بالشعر الرمزيّ الألماني والفرنسيّ خاصّةً عند ريلكه وبودلير

–اتّخاذ القصائد عنده بُعدًا قصصيًا

– التأثّر بالحركة الرومنطيقية وخصائصها .(7)

محمد الماغوط:

ولد محمد الماغوط بحماه بسورية ،سنة 1934 ، و هو أحد الشعراء المعاصرين المجددين باستمرار ، ومن الذين تجاوزوا قصيدة التفعيلة إلى قصيدة النثر ، وقد شكل ظاهرة في التاريخ الشعري العربي المعاصر .إنه على حد وصف إبراهيم مشارة " ليس كغيره من الشعراء الذين تخرجوا من أرقى المعاهد والكليات ولا من الذين أوصى بهم الأمراء والوجهاء إنه شاعر شحذته المواقف وتعهده الجوع وأوصى به الفقر، فكان رجل مواقف وشاعر إباء خاض تجربة قصيدة النثر ، رغم اعتراضات النقاد الكبار عليه، ونخص بالذكر الراحل عباس العقاد الذي كان يسميه «الشعر السائب» ويحيل قصائد الشعراء الشباب في ذلك الوقت من أمثال أحمد عبد المعطي حجازي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور على لجنة النثر للاختصاص، إمعانا في السخرية وفي عدم الاعتراف بهذا اللون من الشعر ." (8)

يمثل الماغوط نموذج الشاعر "الصعلوك" المنشق عن مدينة العصابات السياسية و المالية ، الحالم بوطن آخر "شرق عدن غرب الله" ، كما يمثل نموذج المثقف الساخر الذي تقرأ عبر سخريته كل مرارات هذه الجغرافيا الممتدة من المحيط إلى الخليج ، و التي تسمى بهتانا : الوطن العربي.

ولن أنام بعد الآن
في مكان واحد مرتين متتاليتين
وكالطغاة أو الأنبياء المستهدفين
سأضع شبيها لي
في أماكن متعددة في وقت واحد
لا لتضليل الوشاة والمخبرين فلقد صاروا آخر اهتماماتنا
ولكن لتضليل القدر

وإني بهذه المناسبة

أنصح هذا الوطن الخرف العجوز

أن يقوم بنفس الشيء

ولا ينام في خريطته مرتين متواليتين(9)

عبر البساطة اللغوية و الأسلوبية التي يمكن وصفها "ببلاغة التقريرية" يتصفح الماغوط المجتمع العربي و تاريخه الماضي و الحاضر معريا الغبن الاجتماعي و القهر السياسي للمواطن العربي ، متخلصا من كل القيود منقلبا على المعايير الفنية و الجمالية انسجاما مع وضعية الشاعر –المثقف الذي تفرض عليه الطبيعة الوقوف على أرض المعارضة دائما . و تلك مجمل خصائص شعر الماغوط المتنقل بين الأرصفة و المقاهي و السجون لا يحمل سوى لسانه اللاذع، و هو القائل: " زمان عندما كنت أتمشى في حلب كنت أسمع بائع الجرائد ينادي : الوطن بثلاث ليرات ..الثورة بليرتين ..العروبة بليرة و ربع ..الشعب بليرة ..كنت أظنه يقصد سعر الجرائد !" (10)

و على العموم فرواد التجديد كانوا يبحثون – عبر تجديد النصوص– عن تجديد الحياة ، و الذهنية العربية برمتها ، توقا إلى مجتمعات العدالة و الحرية و الكرامة الإنسانية ، ذلك ما نقرأه عند الرواد الذين ذكرناهم و عند البقية الذين لم يتسع المجال لذكرهم كالبياتي و إمل دنقل و أدونيس و نزار قباني و غيهم ممن جاؤوا بعد السياب.

هوامش المحاضرة: